

رؤية إريك فروم للدين ونظريته في الدين الإنساني

Erich Fromm's Vision of Religion
and His Theory of Humanistic Religion

راينر فونك^١

ترجمة لؤي خزعل جبر

ولد إريك فروم في (١٩٠٠) في فرانكفورت الألمانية، وتوفي في سويسرا (١٩٨٠). نشأ كطفل وحيد في بيت يهودي أرثوذكسي، واهتم بالظاهرة الدينية منذ صباه. وبعد أن درس علم الاجتماع في جامعة هايدلبرغ وألمّ بالتحليل النفسي لسيجموند فرويد، طوّر نظرية ومنهجية جديدة في علم النفس الاجتماعي مكنته من تفسير كيفية استدخال متطلبات الحياة الاجتماعية في البواعث النفسية لكل فرد. ونتيجة لجهوده العلمية تقاطع مع ممارسة الدين اليهودي، وأصبح ناقداً للأديان الراسخة، ولكنّه – رغم ذلك – اهتمّ بسؤال أهميّة الظاهرة الدينية لسلامة الإنسان والمجتمع.

مدخل إريك فروم للظاهرة الدينية

لفهم الظاهرة الدينية، وجه إريك فروم انتباهه إلى المنظور النفسي للموقف الأصلي للإنسان، أي حيث بدأ الإنسان يختلف عن الحيوان. تعاطف فروم مع هذا الموقف واستشعر كل ما يشعر به من انعدام الأمن والعجز والانقسامات إنسان موهوب بالوعي الذاتي والخيال والعقل: ليكون جزءاً من الطبيعة، ولكنه يفقد آليات الغريزة للتكيف النموذجي عند الحيوان، وبالتالي يشعر بالضيق، ولكن في الوقت نفسه لتجاوز الطبيعة بالقدرات المكتسبة حديثاً، الوعي بالذات والقدرة على تخيل الواقع بشكل مستقل عن المنهات الحسية الخارجية والداخلية.

وفقاً لفروم، فإن هذا الموقف الثنائي الوجودي يولد احتياجات نفسية أساسية لها قوة وديناميكيات مماثلة لتلك الاحتياجات الأساسية الغريزية المشتركة بين البشر مع الحيوانات: احتياجات الأكل والشرب والنوم والتحرك وإرضاء رغباتهم الجنسية.

^١ راينر فونك Rainer Funk (١٩٤٣) محلل نفسي ألماني، إضافةً إلى تخصصه في الفلسفة واللاهوت، وأستاذ في جامعة التحليل النفسي الدوليّة International Psychoanalytic University في برلين. عملَ مساعداً لإريك فروم (١٩٧٤-١٩٨٠)، أنجز خلالها أطروحته للدكتوراه عنه (١٩٧٧). وقامَ بتحرير أعماله الكاملة (١٩٧٥-١٩٨١)، كلّفه فروم بإدارة حقوقه وعقاراته، وورث مكتبته وممتلكاته الأكاديمية، وبنى أرشيفه، وله الحقوق الحصريّة بكتاباتِهِ، ومؤسس ورئيسُ جمعيتِ إريك فروم الدوليّة The International Erich Fromm Society، ومدبرُ مؤسسة إريك فروم في توبنجن Erich Fromm Institute Tübingen ومركز إريك فروم للدراسات Erich Fromm Study Center. من أهم أعماله: إريك فروم: شجاعة الإنسانية (١٩٧٨)، وإريك فروم: شهادات ذاتية ووثائق تصويرية (١٩٨٣)، وإريك فروم: حُب الحياة (١٩٩٩)، وإريك فروم اليوم: أهميّة فكره (٢٠٠٠)، وأنا ونحن: التحليل النفسي للإنسان ما بعد الحداثي (٢٠٠٥).

الاحتياجات النفسية الأساسية هي نموذجية فقط بالنسبة للبشر، ومن ناحية أخرى، يمكن التحقق منها في كل إنسان، ويجب أن تكون مُشبعة عن كل إنسان. وهي تشمل الحاجة الوجودية للعلاقة. بغض النظر عن كيفية تفاعل الشخص مع هذه الحاجة، سواء كان يطور العاطفة الساعية إلى الخضوع لشخص آخر، أو يرفض، أو يجلب الآخرين إلى سلطته أو أن يكون قادراً على الحب، مع كل من هذه الجهود العاطفية، فإنه يرضي حاجته النفسية التي لا غنى عنها للترابط.

تعتمد الطريقة التي تلبى بها احتياجاته الوجودية للعلاقة من ناحية على التجارب الشخصية للغاية المعتادة والمُنعكسة في تكوين الشخصية الفردية؛ ومن ناحية أخرى، تعتمد الطريقة التي يلبي بها هذه الاحتياجات الوجودية للارتباط على أنماط العلاقة التي يتجسد فيها الفرد من خلال الثقافة والمجتمع الذي يعيش فيه. كما يتم استدخال أنماط العلاقات هذه. إنها تؤدي إلى تكوين الشخصية الاجتماعية في كل فرد. وهذا يجعل الناس يجاهدون بشغف لما يحتاجه المجتمع والثقافة للاستمرار. والحاجات للعلاقة ترتبط بالكينونة الإنسانية، وبالتالي تنتمي إلى "طبيعة الإنسان"، في حين إن أنماط الإشباع والشغف المفضل اجتماعياً مشروطة ومتغيرة تاريخياً.

في محاولة لتحديد الاحتياجات النفسية الأساسية للارتباط بشكل أكثر دقة، لا يواجه فروم الحاجة إلى الدين، ولكن مع ذلك - كما يقول - "الحاجة إلى إطار للتوجه ولموضوع للإخلاص". يمكن تحقيق ذلك في الدين، ولكن أيضاً في جميع أشكال الفلسفة والمنظور العالمي والنظرية السياسية والعلمية وتفسير العالم. وفي حين أن الدين بالنسبة للعديد من النقاد هو ظاهرة زائفة لا لزوم لها عند الناس المتنورين، فإن دين فروم هو ظاهرة بشرية أولية. الدين هو إجابة محتملة للحاجة إلى إطار للتوجه وموضوع للإخلاص، يجب أن يرضيه جميع البشر. وقضية كونه يتم عن طريق دين مؤسسي أو مع شخصيات إيديولوجية وسياسية واجتماعية أخرى تعتمد بقدر كبير على مسألة الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي يعيش فيها شخص ما، وكذلك مسألة تفضيل هذا الدين أو ذلك أو الاتجاه الديني.

في المجتمعات التي تحكمها أقلية قوية تفرض الخضوع على الجماهير، سيكون الفرد مشبعاً بالخوف، وغير قادر على الشعور بالقوة أو الاستقلال، ستكون تجربته الدينية تسلطية. سواء كان يعبد إلهاً مُعاقباً، أو رهيباً، أو قائداً صارماً، لا فرق كبير في ذلك.
(التحليل النفسي والدين، ١٩٥٠، ص ٥٢).

بالنسبة إلى فروم، الدين والسياسة، ومفهوم الله والإنسان، وتجربة الله والتغيير الاجتماعي ليسا سوى نهجين مختلفين للظاهرة نفسها: الحاجات النفسية المشبعة بتفضيل بعض المجهودات العاطفية بحسب الواقع الاجتماعي والاقتصادي السائد. لذا، لا يمكن فصل مسألة الدين، أولاً، عن مسألة أي الدوافع العاطفية التي يتم تشجيعها والتي يتم تثبيتها في مجتمع معين؛ وثانياً، لا يمكن فصل مسألة الدين عن السؤال حول أي من المحاولات العاطفية مرغوبة: تلك التي يحتاجها المجتمع لوظائفه الخاصة، أو تلك التي تخدم النمو والنضج النفسي.

عند ترجمتها إلى المصطلحات الاجتماعية النفسية لفروم، فإن الأمر يتعلق بالتفاعل بين توجه الشخصية الاجتماعية والدين، أولاً حول دليل كون الظاهرة الدينية تعتمد على توجه الشخصية الاجتماعية السائدة، وثانياً حول مسألة النواتج النفسية الإيجابية أو السلبية للدين المتشكل.

تفاعل الدين وتوجه الشخصية الاجتماعية

يجب الحكم على الدين والممارسة الدينية من خلال التأثيرات على نفسية الإنسان والصحة النفسية، ما يقويه ويعززه من التوجهات الشخصية أو الأنماط العاطفية للعلاقة. فيما يتعلق بالدين، تعامل فروم قبل كل شيء مع التوجه التسلطي ووصف المنطق السادوماسوشي للنمط الديني للعلاقة. لقد أظهر ديناميات الاغتراب للعلاقة مع الله، حيث يحل الإنسان أفضل قدراته الخاصة: استقلاليته، قدرته على العقل والمحبة، حكمته وإبداعه كقوى خاصة به، كل هذه المشاريع يسقطها على الله، وفي نفس الوقت يبقى متصلاً بهذه الصفات من خلال الخضوع لله وجعل نفسه يعتمد عليه بشكل تكافلي. كل شيء يستحق العيش والمحبة ليس له أصل في الإنسان نفسه، وإنما يستقبله بلطف وامتنان (تانياً) من الله، كهدية من الله. آثار مثل هذا الدين وعلاقة الله جائرة: ثقة الإنسان في نفسه وقدراته تضعف، خوف قوي إلى حد ما يثبت نفسه دون أن يضيع في علاقته بالله؛ الشعور الأساسي بتجربة الذات خاطئ وخجول، مليء بالشك في النفس ويتوق إلى التبرير؛ لم تعد محبة الإنسان الآخر قدرة بشرية أصلية، بل هبة كريمة من الله، إلخ.

لا تزال هناك أنماط التسلطية للعلاقة في كل منعطف، ولكن في العقود الأخيرة، وخاصة في المجتمعات الحديثة، ظهرت توجهات شخصية أخرى إلى المقدمة، تحدد بشكل متزايد الظاهرة الدينية. إلى حد ما، يدعون إلى مصادرة أكثر شمولاً للبشر، أي الاعتماد على الإدمان أو النرجسية، وهو أمر شائع فقط في تبعيات القنانة؛ من الناحية النفسية، هذه في الغالب أنظمة نرجسية جماعية يجب أن يكون فيها الفرد انعكاساً (نرجسياً) للنظام الديني، أو الفكرة الدينية أو المعلم، مؤسس دين أو مؤسس طائفة. ومع ذلك، إلى حد ما، لا تعتمد الأنماط الدينية الجديدة للعلاقة على رابطة نرجسية قوية مع المستنير، ولكن على إنشاء فهم مختلف - معظمه فصامي - للواقع، والذي لم يعد يُسمح بعد ذلك بالانحراف عنه.

لا يمكن الدخول في هذه الأنماط الجديدة من العلاقات بالتفصيل في هذا الإطار. ولكن أود أن أتحدث عن تطور يظهر بوضوح بشكل خاص كيف يبدو الاغتراب الديني اليوم في مجتمع منظم على أساس الرأسمالية واقتصاد السوق. في التوجه التسلطي، يشير الاغتراب إلى أن الإنسان يُظهر قواه الإنتاجية الخاصة به على سلطة شخصية كنظير لا يزال على علاقة تكافلية معه. في اتجاه التسويق، يتكون الاغتراب من إسقاط قواه الإنتاجية على عمل يديه وبالتالي السعي إلى إيجاد نفسه مرة أخرى في المنتجات الحية من خلال السعي إلى الخلاص في الاستيلاء على المنتجات واستهلاكها (وليس في الخضوع للسلطة). الاغتراب هنا يعني أنه لم يعد مرتبطاً بقدرات المرء على الإطلاق، ولكن توقع كل الخلاص من استخدام واستهلاك ("امتلاك") المنتجات التقنية والاصطناعية.

يُفهم الدين هنا على أنه مصطلح متغير للسوق ونمط تملُّكي من الوجود؛ يظهر التدين نفسه في الالتزام بالتسويق، والنجاح، والتوصل إلى الشروط، والقدرة على بيع الذات، وما إلى ذلك. الخدمات الدينية للناس التسويقيون هي الإعلانات التجارية، لأنه هنا يتم تنظيم عالم يكون خلاصياً ويعد بأنه مع شراء مشروب كحولي يستعيد المرء قدرة الإنسان على الرقة، أو أنه مع بعض العلامات التجارية للأحذية يستعيد المرء نشاطه وقدرته على التجربة.

وبالتالي، تُعرض المشكلة الدينية الحالية بطريقة تجعل من المعقول للإنسان أن الحقائق المختلفة والوهمية مرضية أكثر بكثير من إدراك الحقيقة في تناقضاتها. ومن هنا التوق إلى عوالم الإنترنت، صناعة الترفيه، رحلات الأحلام الوهمية. وهكذا يظهر "الدين" اليوم: مع قيمة الترفيه والخبرة، في تسويق عبادة ماكدونالدز كيدز وناقلات قميص بينيتون أو في جزر العطلات في دبي أو في جزر المالديف.

دعونا نسأل من هنا عن البديل، عن التوجه الإنتاجي أو الإنساني، عن فهم الدين والممارسة الدينية التي تظهر تأثيراً إيجابياً وعلاجياً. في كتابه التحليل النفسي والدين، الذي نشر سنة ١٩٥٠، لم يظهر فروم ديناميكيات الاغتراب لشخصية اجتماعية تسلطية فحسب، بل مع وصف الدين الإنساني أظهر أيضاً التوجه الإنتاجي الذي يصبح فيه البشر مرة أخرى موضوعاً لسلطات المرء وتجربته الخاصة. ويعيشون من نضجهم المكتسب ذاتياً دون إنكار صلاحيتهم وحدودهم.

في تحليل العمليات العلاجية النفسية التي يتم من خلالها شفاء المرضى، لاحظ فروم، مثل فرويد، أنه لا يتكيف مع الاحتياجات الاجتماعية التي تشفي، ولكن عملية النضج النفسي التي يتم فيها جعل المساعي المكبوتة واعية بحيث تصبح جزءاً من الأنا. إن الكشف عن محاولات خفية ومقموعة غير مرغوب فيها من قبل المجتمع يعزز النضج النفسي ويتم من خلال عملية التكامل هذه الشفاء النفسي.

والسبب في ذلك هو أن القوى النفسية متاحة كقوى خاصة، وأن تلك المواجهات العاطفية المعززة، التي تجعل من الممكن إقامة علاقة ذاتية مستقلة مع الذات والبيئة الطبيعية والبشرية، تنبثق من القوى المحبة والمعقولة. كلما زادت خبرات الإنسان بنفسه كمؤلف، ممثل، موضوع حياته، وبالتالي هو نفسه، مع قواه الخاصة، من يفكر ويشعر ويتصرف، وتطور قواه في العقل والحب، حيث يمكن للمرء أن يكون قريباً تماماً من العالم والآخر دون أن يفقد نفسه.

إذا أصبحت دوافع الإنسان العاطفية قواه الخاصة، أي القوى التي يكون موضوعها هو، بحيث يكون أصلها في الإنسان نفسه، والإنسان هو الذات الأصلية، يصبح الإنسان قادراً على الإحسان الأمثل مع الحب الأمثل للذات، ثم يجد الفرد نفسه مرة أخرى في الجار دون أن ينتهك سلامته أو سلامة الآخر (وهذا يعني "الحب" عند فروم) وبعد ذلك يكون قادراً على التعرف على الواقع بكامل موضوعيته على أساس شخصيته بالكامل (هذا يعني "العقل" مع فروم).

من وجهة النظر الدينامية النفسية، تتحدد السلامة العقلية من خلال تطوير قوى العقل والحب المتأصلة في جميع البشر. لذلك يعتمد كل شيء على ما إذا كان توجه الشخصية الاجتماعية بحيث يعزز الدين هذا الهدف الإنساني أم لا.

بقدر ما أسس فروم أنثروبولوجيا الظاهرة الدينية، بقدر ما يبقى السؤال الذي ينتقد الدين معه، ويأخذ معنى مركزي. يظهر نفسه في تفسير إنساني للظاهرة الدينية ومفهوم الله.

المفهوم الإنساني لله في عمل إريك فروم

في كتابه التحليل النفسي والدين، ينتقد فروم "الدين التسلطي" من تفسيره الإنساني لمفهوم الله: *"في الدين التسلطي الله رمز للسلطة والقوة ... والإنسان مقايضة به ضعيف تماماً. يتبع الدين العلماني التسلطي نفس المبدأ. هنا يصبح الفوهرر أو المحبوب أو أبو الشعب أو الدولة أو العرق أو الوطن الاشتراكي موضوع العبادة؛ تصبح حياة الفرد غير ذات أهمية، وتتكون قيمة الإنسان في إنكار قيمته وقوته. ... إن الدين الإنساني، على العكس، يتمحور حول الإنسان وقوته. يجب على الإنسان أن يطور قوة عقله لكي يفهم نفسه، وعلاقته بإخوانه البشر ومكانته في الكون ... بقدر ما تكون الديانات الإنسانية موحدة، فإن الله رمز لقوى الإنسان الخاصة التي يحاول تحقيقها في حياته، وليس رمزاً للقوة والهيمنة. وله سلطة على الإنسان" (التحليل النفسي والدين، ١٩٥٠، ص ٣٧).*

الدين الإنساني - بحسب فروم - وجد بشكل رئيسي في التصوف وفي الاتجاهات الصوفية للديانات الراسخة. لأن هؤلاء فقط هم الذين يهتمون بتجربة الواحد ويختبرون وحدانية تحدث فقط حيث يتخلص الإنسان من جميع مفاهيم إله قوي، من كل إدراك لله، من كل السعي إلى الله، من كل معرفة الله، أو - بتعبير إيكهارت - حيث لا يملك الإنسان شيئاً، لا يعرف شيئاً، لا يريد شيئاً.

ينطوي فهم إريك فروم للدين على نقد شامل للدين، موجه بشكل خاص ضد ديانات الوحي الراسخة. هؤلاء يتظاهرون بأنهم يعرفون شيئاً عن الله وأن يكونوا قادرين على فهمه في جوهره؛ لكنهم يستبدلون التجربة الإنسانية في السمو إلى الذات العليا بمعرفة إله يتجاوز أي واقع بشري. دين فروم الإنساني والصوفي هو إنكار كل دين يهتم بالإدراك الإيجابي لله:

'إن مفهوم الله يتكون في البداية وفقاً للمفاهيم السياسية والاجتماعية لرئيس قبلي أو ملك. ثم يتم تطوير صورة ملك دستوري ملزم للإنسان بالالتزام بمبادئه الخاصة: الحب والعدالة. يصبح الإله المجهول، الإله الذي لا يمكن أن تنبأ عنه صفة الجوهر. هذا الإله بلا صفات، الذي يعبد "في صمت"، لم يعد إلهاً تسلطياً؛ يجب أن يصبح الإنسان مستقلاً تماماً، وهذا يعني الاستقلال حتى عن الله.' (يجب أن نكون كالآلهة، ١٩٦٦، ص ٦١).

عندما يسعى الدين إلى الاعتراف بالمفهوم الصحيح لله والله الحقيقي، فإنه يمارس بالفعل وثنية. إن الخدمة الوحيدة التي يمكن أن يقدمها دين مؤسسي للتجربة الدينية هي خدمة دينية نقدية: الكشف، وتفكيك الأوهام ونقد الأصنام والأوهام والأيدولوجيات. لذلك طلب فروم "عقيدة"، علم بالأصنام، بدلاً من مفاهيم الله:

'إن معرفة الأصنام ومحاربة الأصنام يمكن أن يوحد البشر من جميع الأديان ومن ليس لديهم أي دين. لن يقسم الجدل حول الله البشر فحسب، بل سيحل محل الكلمات إلى واقع التجربة الإنسانية ويؤدي في النهاية إلى أشكال جديدة من الوثنية.' (يجب أن نكون كالآلهة، ١٩٦٦، ص ٤٩).

من المنطقي أن يتجنب فروم منذ كتابه "يجب أن نكون كألهة" من عام ١٩٦٦، كلمة الله وبدلاً من ذلك يتحدث عن الله على أنه "X"، وبدلاً من تجربة الله يكون "تجربة X"، بدقة لأن الله لا يمكن أن يكون يُعرف من الناحية المفاهيمية، ولا يمكن تجربته إلا كعلامة X غير محددة. تعني X أنه في هذه التجربة لا يملك المرء أي شيء في يده، ولا شيء في رأسه، ولا شيء في قلبه - لا يمكن تحقيق أي شيء، ولا يمكن معرفة أي شيء، لا شيء هناك يشترك إليه. الخبرة الدينية شيء غير متاح، يتعلق الأمر بي، يقابلني، تعاش بطريقة غير متوقعة، وبالتالي تجربة عامة بطريقة تجاوية.

إن مفهوم فروم عن الله هو ما يسمى باللاهوت السلبي، لأن الله لا يمكن إلا أن يقال ما هو ليس كذلك. لذلك يجب أن يصبح اللاهوت عقيدة. ما ينطبق على مفهوم الله ينطبق أيضاً على مفهوم الإنسان بحسب فروم. الفرد "يتعرف" على الإنسان فقط بمساعدة علم النفس السلبي.

'يمكن لعلم النفس أن يبين لنا ما ليس هو الإنسان، ولا يمكن أن يخبرنا ما هو الإنسان، كل واحد منا ... الهدف المشروع لعلم النفس هو السلبية، إزالة التشوهات والأوهام.' (الإنسان ليس شيئاً، ١٩٥٧، ص ١٩٥).

لا ينفي فروم علم اللاهوت لصالح علم النفس العميق، لكنه يبطله في علم النفس السلبي. إنه يفسر مفهوم الله بطريقة إنسانية تماماً، ولكن ليس بطريقة يرث بها الدين ويحوّله إنثروبولوجياً أو إنسانياً، ولكن من خلال جدلية مفاهيم الله والإنسان واللاهوت وعلم النفس.

"ومع ذلك، هناك طريق آخر لمعرفة سر الإنسان، هذا الطريق ليس طريق الفكر بل طريق الحب. الحب هو الاختراق النشط للشخص الآخر، حيث لا تزال الرغبة في المعرفة بالاتحاد. ... أعرف بالطريقة الوحيدة التي يمكن للإنسان أن يعرف بها ما هو حي، من خلال تجربة الاتحاد، وليس من خلال أي معرفة يمكن أن تعطى فكرتنا. الطريقة الوحيدة للمعرفة الكاملة تكمن في فعل الحب". (الإنسان ليس شيئاً، ١٩٥٧، ص ١٩٦).

تجربة X لا تتعلق بمعرفة ميتافيزيقية، ولكن تجربة متناقضة: إنها تجربة الواحد في دمج نفسه من أجل لا شيء، تجربة الامتلاء في دمج نفسه بالفراغ. تجربة الوحدة مع الغريب والآخر في وفي الآخر تُختبر كتجربة السمو، لشيء غير متاح، كهدية وغير أنا. ولكن لأنها تُختبر كوحدة من خلال ممارسة العقل والحب، فهي دائماً تجربة الغريب في المرء، إنها تجربة الآخر كواحد، وبالتالي لا شيء غريب في نهاية المطاف عن البشر.

فروم معني بتجربة السمو، لكن هذا السمو ليس أبعد من ذلك، لا شيء غريب بشكل أساسي عن البشر، ولكنه شيء في عالم الاحتمال البشري. ما يسمى في الأديان "تجربة الله" هو في تجربة X تجربة أكثر شمولاً لمنط الهدف لما هو ممكن إنسانياً. وحقيقة أن الناس غالباً ما يبقون بعيداً عن هذا الهدف لا تتحدث ضد الاحتمال.

من ما سبق، يمكن أيضاً إظهار أن رؤية فروم للدين الإنساني كنفد لأي شكل من أشكال الدين المؤسسي لا يمكن أن تكون مقبولة حقاً إلا لأولئك الذين يدركون التجربة الدينية كممارسة للعقل والمحبة، سواء كانوا يؤمنون بالله أم لا. في هذا بالضبط يكمن الاستفزاز الهائل لانتقاد الدين - ويسمح بالصيغة المتناقضة - الخطاب الإنساني عن الله وعن إله فروم. فقط من يمارس الحب والعقل، ستكون هذه القوى قوى دينية، وبالتالي قوى خلاصة وموحدة يمكن من خلالها للمرء أن يختبر الوحدة مع نفسه ومع البشر الآخرين.

الدين كممارسة للعقل والمحبة

بالنسبة للبعض، فإن تحديد تجربة X باعتبارها تجربة ل الواحد من خلال ممارسة العقل والحب قد يبدو فارغاً جداً وقليل التجاوز أو متعالياً. ألا يقود العقل والحب دائماً إلى الإنسان الفاشل، الاغتراب، تدمير للذات؟ كاستنتاج، أود أن أعيد كتابة كلتا العبارتين من أجل توضيح بعدهما "الديني":

العقل لا يعني "اعرف كيف"، ولا يعني الفهم الفكري للواقع؛ العقل ليس له علاقة بـ "الذكاء التحليلي" أو "العقل الآلي". لا يمكن إنتاج العقل أو صنعه، حتى من خلال الكثير من المعرفة والتفكير. العقل هو بالأحرى القدرة على تجربة الوحدة مع الواقع الخارجي والداخلي. العقل ليس المنطق السببي، ولكن المنطق التناقضي. إنها القدرة على تجربة الذات كثيراً كوحدة مع قطعة، وردة، الواقع الذي يدركه العقل لا شيء فيه غريب ومختلف بعد الآن، ولكنه شيء خاص به بعمق ومتوحد معه.

يمكن رؤية وجود مثل هذه القدرة للعقل في حقيقة أن الواقع يمكن أن ينظر إليه على أنه ملك الفرد، كبيت ومألوف، كعيش وحيوية، على الفور والحاضر. وكلما زادت هذه القدرة على العقل، قل

الخوف من الواقع الخارجي والداخلي، وكلما انخفض التهديد والاعتراب، قلّت الفجوة بين العالم الخارجي والداخلي، والموضوعية والذاتية.

الحب هو أيضاً لا شيء يمكن إنتاجه أو تنفيذه. الحب ليس فقدان الذات ولا نبذ الذات، وبالتأكيد ليس التبعية أو الخضوعية أو نتيجة شخص أحب أولاً وبالتالي يُعتبر مصدر كل الحب. الحب هو شيء يختبره المرء كهدية من خلال العطاء والمشاركة والتواصل، لكن الحب لا يعني توقع أن يكون "محبوباً". الحب هو نشاط من تجربة الامتلاء، ولكنه ليس توقعاً سلبياً بأنه سيتم إكمال النقص. إنها القدرة على معرفة أحد مع كل القوى الحسية والعاطفية والروحية، وهذه الطريقة من الشعور بالذات لإحساس أحدهم بالآخرين والطبيعة دون التخلي عن نفسه أو تحريك الآخر للتخلي عن الآخر. الحب هو القدرة على تجربة الغريب والآخر باعتباره شخصاً واحداً، وإحساسه بالغريب والآخر والشعور مع الآخر في تجربة الغريب على أنه شخص واحد.

العقل والمحبة هي القوى الدينية للإنسان، هي من يمكن من تجربة الوحدة والواحد، التي تم وصفت تقليدياً بمصطلح "الله".

بالتأكيد، لا يمكن وصف الطريقة التي يتحدث بها فروم كطبيب نفساني عن الله بأنها ممثلة للطريقة التي يتحدث بها علماء النفس، وخاصة المحللين النفسيين، عن الله. أعاد عالم النفس الاجتماعي فروم صياغة مسألة التحدث عن الله في القرن العشرين من خلال تفريق جدلي للدين ونقد الدين والتوحيد والإلحاد في الاعتقاد الإنساني بنمط الهدف عما هو ممكن إنسانياً.

في نهاية كتابه "يجب أن تكون كآلهة"، يسأل فروم: "هل مات الله؟" وأجاب بهذه الطريقة:

"يجب أن ينقسم السؤال إلى جانبين: هل مات مفهوم الله أم أن الخبرة التي يشير إليها المفهوم، والقيمة العليا التي يعبر عنها، ماتت؟ ... فيما يتعلق بمفهوم الله، يجب أن نسأل أيضاً ما إذا كان ينبغي لنا الاستمرار في استخدام مفهوم لا يمكن فهمه إلا من حيث جذوره الاجتماعية والثقافية: ثقافات الشرق الأدنى، مع رؤساء القبائل التسلطية والملوك القائمين؛ وبعد ذلك إقطاع القرون الوسطى والملوكيات المطلقة. بالنسبة للعالم المعاصر، الذي لم يعد يسترشد بفكرة الملكية، فقد مفهوم الله أساسه الفلسفي والاجتماعي. من ناحية أخرى، إذا كان ما نعنيه أن نسأل ما إذا كانت التجربة ميتة، فبدلاً من السؤال عما إذا كان الله ميتاً، قد نطرح السؤال بشكل أفضل عما إذا كان الإنسان قد مات. يبدو أن هذه هي المشكلة المركزية للإنسان في المجتمع الصناعي في القرن العشرين. إنه معرض لخطر أن يصبح شيئاً، وأن يصبح أكثر نفوراً، وأن يغيب عن البال المشاكل الحقيقية للوجود البشري، ولم يعد مهتماً بالإجابات على هذه المشاكل. إذا استمر الإنسان في هذا الاتجاه، فسيكون هو نفسه ميتاً، ولن تكون مشكلة الله، كمفهوم أو كرمز شعري ذي قيمة أعلى، مشكلة بعد الآن" (١٩٦٦، ص ٢٢٨).

ملاحظة أخيرة: ما يميز الدين بالمعنى الإنساني هو تجربة X كتجربة القدرة على تجاوز النزعات الاستجابية المسبقة للفرد، بغض النظر عن كيفية تفسير هذه التجربة (على أنها فعل الله لي أو على أنه مشارك في بنية اللاوعي. أو أي شيء آخر). ومع ذلك، يمكن تجربة هذا "التدين" اليوم بطرق عديدة مختلفة: الإيحاء التلقائي أو التطويعي أو الدوائي، بمساعدة الأدوية أو الجهد الزائد أو التقنيات المتكررة أو

الغيبوبة أو تقنيات اتصال معينة وما إلى ذلك. ولكن كل هذه الاحتمالات تشير إلى أن التجربة الدينية أو تجربة السمو:

- تُعاش بشكل مؤقت فقط ولا تؤدي إلى نضج الشخصية، توجه إنتاجي.

- تحد من الاستقلالية البشرية وتخلق التبعيات.

- تقلل من القدرة على الارتباط بأشخاص آخرين.

- تشوه تجربة الذات (احساس الفرد بهويته).

- تقيد إحساس المرء بالواقع.

- تقلل من القدرة على المعاناة.

- تؤدي إلى عدم كفاية الشعور بالمسؤولية.

وبعبارة أخرى، يجب أن يثبت أن التوجه الإنتاجي يعني دائماً تحقيق وتعزيز القدرات الروحية والعاطفية والبدنية للإنسان، مما يؤدي إلى تطور دائم ومتزايد للشخصية (التوجه الإنتاجي)، وأن كل المؤشرات المشار إليها للتو متحققة بشكل إيجابي: الخبرة الدينية المنتجة تعني نضجاً دائماً، يتميز بزيادة الاستقلالية مع اهتمام ويقظة أكبر للعالم البشري والطبيعي، مع إحساس حاد بالواقع والقدرة على قبول نهايات الحياة والمعاناة كظروف حياة.

المراجع

- Fromm, F. (1950) *Psychoanalysis and Religion*. New Haven and London: Yale University Press.
- Fromm F. (1957) **Man is Not a Thing**. In: *Saturday Review*, New York, Vol. 40 (16.3.1957), pp. 9-11; reprint under the title : **On the Limitations and Dangers of Psychology**, in Erich Fromm (1963) *The Dogma of Christ and Other Essays on Religion, Psychology and Culture*. New York: Holt, Rinehart and Winston. pp. 191-202.
- Fromm, F. (1966) *You Shall Be as Gods: A Radical Interpretation of the Old Testament and Its Tradition*. New York: Holt, Rinehart and Winston.